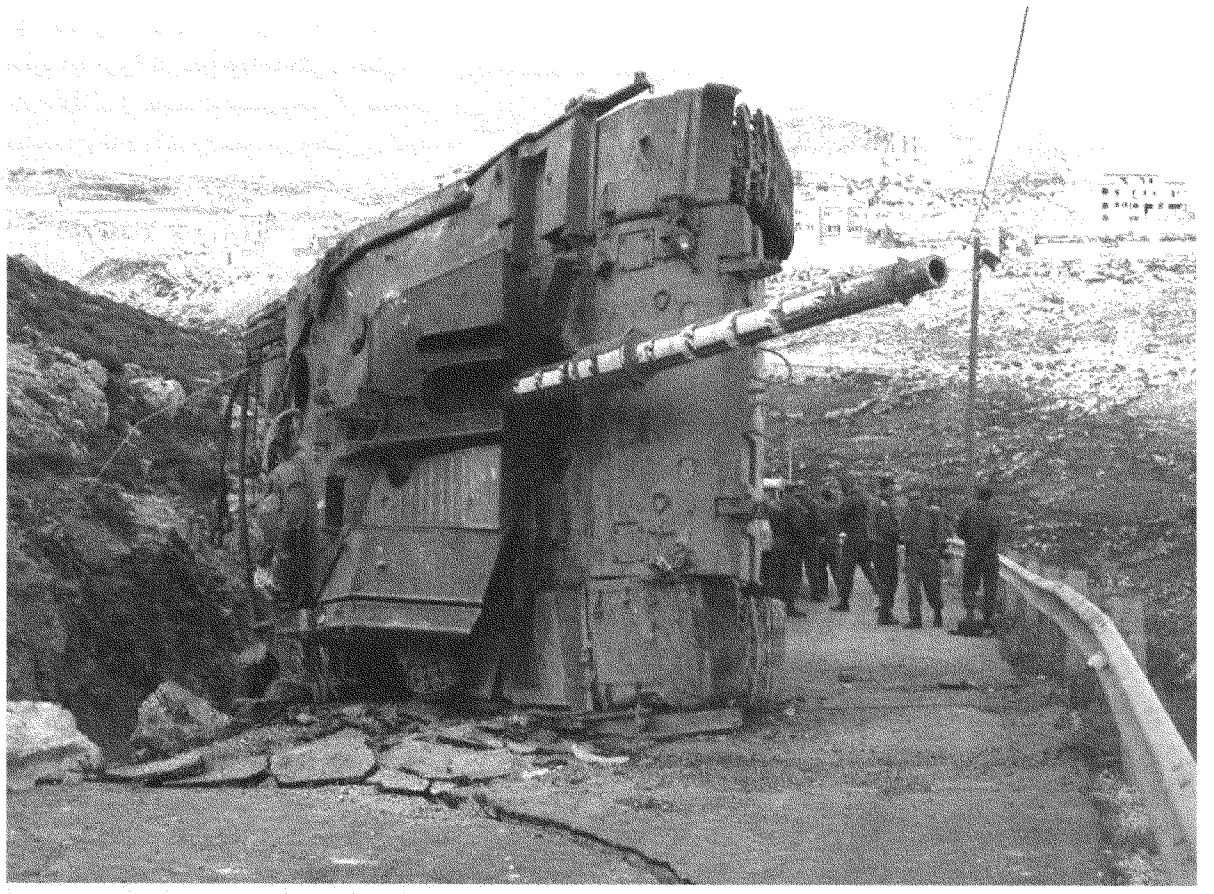

زيـــــــارة

الله معك يا بيتْ صامدْ بالجنوب!

شـــيـــرين أبو النَّجـــا*

مع السنوات والزيارات المتعـدّدة، تراكَمَ عـشـقي للبنان حـتى وجدتُني أحلم بالعيش فيه. لبنان هو البلد الوحيد، ربّما، الذي أزوره من دون وجود داعٍ للزيارة سوى المحبّة. أضع نفسي في الطائرة، وبعد ساعة أكونُ في بيوت الأصدقاء. يندهش منّي أهلُ لبنان، ويتّهمونني بأنني لم أعانِ الطائفيّةَ المتغلغلةَ في جسد البلد.

قبل عام ٢٠٠٠ كنتُ مدعوّة إلى مؤتمر اختُتم في مدينة صيدا، بوّابةِ الجنوب. كانت وقائعُ الجلسة تسير بسلاسة، وأصواتُ الرصاص والمدافع تدكّ مسامعَنا، والأملُ بعيد. ثم حلّ عامُ ٢٠٠٠. كنتُ، كالعالم بأكمله، متسمّرةً أمام التليفزيون لأرى الأمل البعيد واقعًا معيشًا: فلقد عاد الجنوب، وسادت الأفراحُ والليالي الملاح. بدت الحياة وكأنها ستُغدق علينا ما حُرمناه، وكان اليقينُ أننا نبدأ صفحة جديدة من التاريخ. ولكنْ «خلصت السكرة وجاءت الفكرة،» وأطلّت الروحُ الطائفيّةُ من جديد، وهي أقوى من كلّ تحرير. وراح هذا البلدُ الصغير يعيد ترتيب أوراقه الطائفيّة بحماسٍ كبير.

❖ ❖ ❖

ذات يوم دُعيتُ إلى تناول العشاء في أحد مطاعم بيروت. كان ثمة شابٌّ يغنّي بصوتٍ جبليّ رائق، والفرحةُ تعمّ المكان (كان هناك احتفالُ زفاف في المكان بالمصادفة). فجأةً بدأ الشابّ بغناء «الله معك يا بيتْ صامدْ بالجنوب» لوديع الصافي. ومن دون أيّ مقدّمات، انقسم المطعمُ إلى معسكرين: معسكر يغنّي مع الشابّ بحماس، ومعسكر قرّر أن يصمت وينشغل بالطعام مع مراعاة وضع مسحة تجهّم على الوجوه. انتهت الأغنية وانتقل الشابُّ إلى أغنية أخرى، فعاد الجميعُ لحمةً واحدة!

* ـ كاتبة من مصر.

كان المشهد من أغرب ما رأيت. لو أراد مُخرجًا أن يرتّب مشهدًا بهذه العناية، ما نجح. حدث كلّ شيء في لحظات، وبشكلٍ ينمّ عن خبرةٍ وباع طويلين في الانحياز والاصطفاف.

❖ ❖ ❖

هذا العام، بعد عشرة أعوام على التحرير، وَجدتُ أنه من المعيب ألاّ أكون قد مَتّعتُ نظري بالجنوب بعد. وفي شهر مايو ٢٠١٠ كانت المحاولة الأولى. خرجنا من بيروت ومررنا بصيدا. تتابعت القرى، حتى وصلنا النبطيّة. ثم بدأنا نصعد جبالاً ونهبط أخرى في الطريق إلى بوّابة فاطمة. كنتُ قد أعلنتُ للجميع قبل الرحلة أنني ذاهبة إلى هناك لأرمي حجرًا. السائق يشير إلى بضعة أماكن ويقول لنا أسماءَ ساكنيها، لكننا نرغب في الأرض لا أسماءِ العائلات.

توقّف السائق وسأل شخصين ظهرا فجأةً عن بوّابة فاطمة. لم تكن اللهجة سلسة بالنسبة إليّ. سألته شيئًا، فأجاب أنّ عليّ ألا أتكلّم أمام الضابط. دقائق وقابلنا حاجزًا للجيش. سألنا الضابطُ عن بطاقات هويّتنا وسبب الزيارة. ثم بدأ توبيخنا بشكل لطيف لأننا «ضيوف.» قال إنه لا بدّ من الحصول على تصريح من مخابرات الجيش. يبدو أنّ وجهي وشى بوقع الكلمة عليّ، فأردف ضاحكًا أنها ليست مخابرات كالتي في مصر. شكرناه بافتعال، وعدنا إلى بيروت. كان السائق يشعر بالذنْب لأنني كنتُ قبل الرحلة قد أخبرته أنه لا بدّ من الحصول على تصريح، لكنه أصرّ على أنّ معلوماتي خاطئة. عزّيْنا أنفسَنا بجمالِ ما رأيناه.

في بيروت راحت الأسئلةُ تنهال علينا: «من أيّ طريق ذهبتم؟» لا أعرف. «أيّ الضيع زرتم؟» لا أعرف. «لماذا لم تذهبوا عن طريق بنت جبيل؟» لا أعرف. حاولتُ أن أهدّئ صديقتي اللبنانيّة (التي شعرتْ بالذنب لأنها لم تذهب معنا)، فحدّثتُها عن جمال الطبيعة التي شاهدنا، وعن صعوبة الطرق الجبليّة، وعن استحالة السيطرة على هذه المناطق بسهولة.

❖ ❖ ❖

في الشهر التالي (يونيو/تمّوز) زرتُ لبنان وأنا مصرّة على الوصول إلى بوّابة فاطمة. وجدتُ في حقيبتي بطاقة «عابد،» السائق الشابّ الذي كان قد أقلّني في إحدى المرّات من مطار بيروت. اتصلت به، واتفقتُ معه على مشوار إلى الجنوب، وطلبتُ إليه أن نستخرج تصاريحَ من مخابرات الجيش. حاول أن يثنيني عن عزمي قائلاً إنّ هناك الكثير من الطرق الأخرى التي تؤدّي إلى عمق الجنوب. أصررتُ على موقفي لأنني لم أرد أن أجازف مرةً أخرى.

حاولتُ أن أستعدّ نفسيًا لرحلة المخابرات؛ فأنا، لكوني من مصر، أحمل تراثًا أمنيًا ومخابراتيًا مخيفًا في معظم الأحوال (نقول في مصر: «الداخل فيها [المخابرات] مفقود والخارج مولود»). لكنّ رحلتنا جاءت عكس توقّعاتي: رجال مهذّبون، يسألون أسئلة واضحة وذكيّة. وجاءت اللحظة الحاسمة عندما سألني الضابط عن معارفي في لبنان. فكّرتُ كثيرًا (وسريعًا)، إذ خفت أن تورّط إجابتي الآخرين. قرّرتُ أنّ النساء لن يعترضن على أيّ توريط، فأجبتُ بثقة: «علويّة صُبح ورنا إدريس و..» أشار بيده أنه قد اكتفى بهذين الاسمين، وأعطانا التصريحَ الذي كان عبارةً عن ورقة بيضاء مكتوب عليها رقم ٥١٧ وتاريخ انتهاء التصريح. ثم انطلق يعبّر عن غضبه من عادل إمام. شرحتُ له أنني لستُ سفيرة مصر في لبنان، ولا علاقة لي بتصريحات المسؤولين أو مؤيّديهم. تمنّى لنا رحلةً سعيدة.

❖ ❖ ❖

عابد شابٌّ بشوشٌ وضاحك. يكاد لا يتعدّى الثلاثين. لا يمكن إلاّ أن تحبّه لأنه يحبّ عمله، ويقوم به على أكمل وجه. كما أنه يتميّز بأدب جمّ، ودماثة خلق، وكرم كبير. يضاف إلى ذلك أنه يحفظ أسماءَ القرى والطرق المختلفة، وأين توغّلتْ إسرائيل ومتى، وعددَ المرّات التي قصفتْ فيها كلّ قرية.

بعد أن حصلنا على التصريح من صيدا انطلقنا وعابد يؤكّد لي أنّ الطريق الذي سنسلكه لا حاجز جيش فيه. كانت أول محطّة شرحها لنا هي نهر الليطاني. ثم أشار إلى النقطة التي يبدأ عندها ظهورُ قوات اليونيفيل. أكملنا الطريق. جبال بديعة وسهول فسيحة وقرًى أتمنّى أن أعيش فيها بقيّة العمر. تسير السيارة، والجبل على اليمين، والوادي على اليسار. توقّف عابد وقال إننا نقف الآن على جسر. نظرنا فوجدنا عرض الطريق (الجسر) لا يزيد عن أربعة أمتار، فشرح أنّ هذا الجسر بالتحديد قُصف خمس مرات، إذ تكمن أهميّته في أنه يربط لبنانَ بالجنوب، وضربهُ يعني شلّ حركة الجنوب.

توغّلنا في الطريق. أشار عابد إلى نقطة محدّدة على اليسار، اسمُها وادي الحجيْر. كانت الدوريّة الإسرائيليّة تجول في الوادي، فيخرج لها رجالُ المقاومة من اليمين ثم اليسار ثم الخلف وهكذا، فيتحيّر العدوّ في معرفة الأماكن التي يختبئ فيها المقاتلون. حتى إنهم مِن ذُعرهم كانوا يخرجون في الدوريّة وهم يصيحون ويغنّون بصوت عال.

يزداد جمالُ الطريق. أفكّر أنّ إسرائيل كانت بالتأكيد تحلم بالاستيلاء على هذا الجمال الذي يفوق كلّ تصوّر. وددتُ أن أسأل كلّ لبنانيّ إنْ كان يعرف بوجود هذا الجمال، إنْ كان قد متّع نظرَه وروحَه بزيارة الجنوب. لكنّ الأسئلة لم تخرج من ذلك الحيز الضيق قطّ؛ فبعد انقسام المطعم إلى معسكرين كان لا بدّ أن أفهمَ الدرس.

❖ ❖ ❖

خفّف عابد من سرعة السيّارة، وأخبرنا أنه يودّ أن يعرّفنا بوالديْه في قرية الحلوسيّة. مكان يبدو وكأنه خرج من صفحات مجلة أنيقة. قرية جميلة، طقس بارد، وأشجار مليئة بالرمّان! عندما قابلنا والديْ عابد فهمْنا مصدرَ عزّة النفس ودماثة الخلق والكرم وخفّة الدم والبساطة الأصيلة. شاي وقهوة وفاكهة، وحوارات ممتعة، كأنك تعرفهما منذ زمن طويل. المشهد رائع يُطلّ على وادٍ وسفح جبل. اللون الأخضر لا يبخل على الناظر بشيء. قرّر عابد أن يأتينا بعنقود عنب من التكعيبة في بيت جدّه. نزل من السيّارة ومدّ يده وقطف العنقودَ ثم غسله وقدّمه إلينا. نظرنا إلى العنقود بانبهار، وكأنها أول مرة نرى فيها العنب.

خرجنا من الحلوسيّة، ومررنا بالطيبة، ثم ربّ ثلاثين. وعلى الطريق شرح عابد أننا الآن في القنطرة، تليها العديسة، فكفركلا. أسأل بإلحاح «وأين بوّابة فاطمة؟» ضحك عابد وشرح أنها في كفركلا، ولا توجد قرية اسمُها بوّابة فاطمة. بدأ عابد يجهّزنا نفسيًا لرؤية الجنديّ الإسرائيليّ وجهًا لوجه، وأنا سارحة في الطبيعة البديعة. كنا نتوقف لالتقاط صور، لكنني أدركتُ أنّ الكاميرا قاصرة عن التقاط هذا المشهد؛ فكل شبر فيه يصلح لوحةً رائعة.

يحكي عابد عن أيّام الاحتلال، وعن التصاريح التي كان يحتاج إليها أهلُ كلّ قرية للدخول أو الخروج، وعن النُّقط التي أنشأها العدوُّ الصهيونيّ للمراقبة. تزداد قواتُ اليونيفيل. وفجأة أشار عابد إلى اليمين: «ستّ شيرين، هيدي فلسطين!»

نحن إذًا في كفركلا! توقّف وأشار إلى بوّابة فاطمة، وإلى الجنديّ الإسرائيليّ المتحصّن بسور يشبه القفص. نلتقط صورًا ومزيدًا من الصور، ولا نتكلم؛ فالمشهد يفوق كلّ تصور: بنايات بديعة في كفركلا تطلّ على السلك الشائك (الشريط الحدوديّ)، لا يفصلها عن فلسطين أكثر من مائتيْ مترا! جهاز المحمول يلتقط الشبكة الإسرائيليّة. يشير عابد إلى نقطة عالية ويقول هذه هي نقطة مسكفعام. أصوّر الجنود الإسرائيليين، فيقول عابد إنهم يصوروننا أيضًا. على مرمى البصر، حقول خضراء واسعة (يقول عابد إنها أشجار تفّاح)، ويشير إلى اليسار (ويقول إنها حقول زيتون)، وبيوت منمّقة تميل أسطحُها إلى اللون البرتقاليّ (يخبرنا عابد أنها المباني الجاهزة). مستوطنة مسكفعام أمامي الآن. الحقيقة أنّ فلسطين هي ما أرى. لو كنتُ أسكن في كفركلا، لفتحتُ النافذة كلّ يوم كي أرى فلسطين قبالتي. لو كنتُ أسكن في كفركلا، لفتحتُ النافذة لأقذفَ كلَّ الأحجار على المستوطنة!

❖ ❖ ❖

نعود لأنه كان لا بدّ أن نعود. أسأل عابد عن القرية التي تلي كفركلا، فيخبرني أنها «الخيام،» ويستعدّ للتوجّه إليها. لكنني أشعر أنني قد فقدتُ قدرتي على استيعاب المزيد؛ فلن أستطيع بعد أن رأيتُ المحتلّ على بعد أمتار قليلة أن أستعيد مشاهد معتقل الخيام، ولو كان الإسرائيليون قد قصفوه، كما أخبرنا عابد، لأنّهم أرادوا محوَ آثار وحشيّتهم.

مررنا ببنت جبيل: بعض البيوت كأنه بني بالأمس. يُفهمنا عابد أنّ دولة قطر ساهمتْ في إعادة الاعمار، أو ـ في حالة بنت جبيل ـ أعادت البناء بعد أن سوّيت البيوتُ بالأرض. بعد بنت جبيل غفوتُ بشكل لاإراديّ، وفتحتُ عينيّ لأسأل عابد عن اسم المكان، فقال إننا ما زلنا في جبل عامل. ثم وصلنا صيدا، وبعدها بيروت.

❖ ❖ ❖

أجلس في مطعم إيطاليّ في شارع الحمرا في بيروت. أفكّر في أسباب انقسام المطعم إلى معسكرين. الكلّ منهمكٌ في مشاهدة مباراة في المونديال، فأنتهز الفرصة وأغنّي همسًا: «الله معك يا بيت صامد بالجنوب، يللي تحت سقفك عالوفا ربّيْتنا.»

القاهرة